يد أوروبا الخفية

في البداية لم يكن لأوروبا ثمة مستقبل ولم يبدأ مستقبلها إلا في الماضي القريب؛ أوروبا كانت مشبعة بالدماء، والمجازر منتشرة في كل أركانها. لقد تراكمت أجساد القتلى عند كل رؤية جديدة لتوحيد أوروبا: مئة وأربعون ألف قتيلا في الحرب الفرنسية- البروسية، وثمانية ملايين في الحرب العالمية الأولى وأربعون مليوناً في الحرب العالمية الثانية. لقد قضت الخطط الكبرى والشخصيات الشعبوية تقريبا على القارة. لقد احتاجت القارة لمعجزة لتتعافى لكن أوروبا لم تعد تؤمن ثانية بالقيادة العاطفية. لقد استطاع الشاعر الفرنسي بول فاليري أن يعبر بست كلمات فقط عن الواقع الأوروبي في عام 1945 حين قال: «الأمل الذي كنا ننتظره كان غامضا وما كنا نفزع منه كنا نعيشه».

هذا يفسر لنا لماذا لم يكن دليل أوروبا للهروب الكبير من أسر التاريخ مناطا برجال عظماء من أبطال الحرب مثل تشرشل وديغول اللذين ألهما أجيالا على متابعة القتال بل كان بيد مجموعة مجهولة تقريبا من التكنوقراط كرست نفسها لجعل مستقبل أوروبا خاليا من السلاح. الشخصية البارزة في هذه المجموعة كانت جان مونت: المسؤول الفرنسي صاحب القامة الصغيرة والجسد الممتلئ والممعن في

الرتابة، الـذي ذكّر الصحافي انطوني سامبسـون براوية البطل بوارت للكاتبة آغاثا كريستي.

كانـت مساهمة مونت بوضع رؤية مؤسسة على أن لا توجد ثمة رؤية. لقد تمسـك بملاحظة الشاعر فاليري وحولها إلى مبدأ لتنظيم أوروبا، فجعـل الخوف من الصراع دافعا نحو الوحـدة الأوروبية تاركا أهدافها غـير واضحـة المعالم، سامحـا بذلك لكل شخص أن يشعـر أن أوروبا تسـير بالوجهة التـي يحبها. وإلى الآن فإن أوروبـا عبارة عن رحلة ليس لهـا محطة نهائية، ونظام سياسي يتجنـب الخطط الكبرى والتقنينات المحسومة التي تحكم وتحدد السياسات الأمريكية؛ إن غياب الرؤية هي مفتاح قوة أوروبا.

كان المبدأ الأول الذي يلتزم به مونت هو أن يتجنب مسودات الخطط؛ فإعلان شومان الذي وقعه الفرنسيون والألمان لإطلاق المشروع الأوروبي في عـام 1950 جعل من غياب الخطط مبـدأ أساسيا. فأوروبا لن تبنى دفعة واحدة أو على أسس خطة واحدة كبرى لا غير، بل تبنى من خلال إنجازات ملموسة من شأنها أن تخلق أولًا تضامنا موجودا على الأرض. لقد عمل مونت في عصبـة الأمم المتحدة التي كانت كارثية بعد الحرب العالميـة الأولى ووعـى الحاجـة إلى انواع ملموسة مـن التعاون بدلا من الأتكاء على فكـرة الأسرة الدولية الوهمية. لقد حاول أن يربط فرنسا وألمانيـا من خلال توحيد إنتاج الحديد والصلب؛ نفس الصناعات التي صنعـت سلاح الحرب تضع الآن أسس بناء السلام. كان التكتيك الذي ينهجـه مونت دائما ينحو للتركيز على التفاصيل التقنية بدلا من أسئلة

سياسيــة كــبرى تلفت الأنتباه. لقــد حاول أن يعالــج القضايا الخلافية مــن خلال تجزئتهــا إلى قضايا أصغر، لأنه مــن الأسهل كثيرا الوصول إلى اتفاقيــة بخصوص الصلب والحديد من الوصول إلى اتفاقية بشأن الســلام والحــرب. وهكذا عندمــا تنخرط حكومتــا فرنســا وألمانيا في سلسلــة لا تنتهــي من المفاوضــات فإن الذهاب إلى الحــرب يصبح أقل احتمالا.

إن الطريقــة الأفضــل لتغيير الحقائــق على الأرض هــي من خلال التغيــير التدريجي أو كمــا يطلق عليه مونت: «مشيــة الحلزون». وهكذا فإن كل اتفاقية تعاون على المستوى الأوروبي من شأنها أن تقود بطريقة لا رجوع فيها إلى اتفاقية أخرى تعمق الأندماج الأوروبي. ولذلك فعندما يوافــق قادة أوروبا على إزالة الضرائــب الجمركية على البضائع فإنهم سيركزون علــى قضايا لا علاقة لها بالضريبــة الجمركية مثل الصحة ومستويات السلام والمؤهلات. وعندما عولجت الكثير من القضايا التي لا علاقة لهــا بالضرائب الجمركية فإن قــادة أوروبا ركزوا على السوق الأوروبيــة الموحــدة. والآن فــإن جماعات أكــبر فأكبر مــن السياسيين والموظفين الحكوميين لهــا مصالح في الأندماج الأوروبي؛ وتعقد الآلاف من الاجتماعات بــين مسؤولين من حكومات مختلفة مما يعني ببساطة أنهــم حتما يعرفون بعضهم تمام المعرفة، ويعنــي أيضا أنهم سيفكرون عفويا بقضايا أخرى بإمكانهم أن يتموها مع بعضهم.

إن أسلوب عمل مونت الغريب وضع نهجا سار عليه الاتحاد الأوروبي، وقد وصف أحد حواري مونت، ستانلي كليفلاند هذا النهج كالآتي:

«كلمـا عالج مونت مشكلـة كان يجمع حوله عصبـة من الرجال.... ويبدأ نوعا ممـا يسمى «جلسات الدردشة» التـي لا تتوقف، وقد يستمر الحوار أحياناً أسبوعا أو أسبوعين وساعات وساعات من اليوم.... وكان مونت يلتزم الصمت وأحياناً يثير بتدخله نوعا من ردات الفعل لكنه كان لا يقـول الشئ الكثير... بعد ذلك وبالتـدرج، مع تقدم المحادثات والتي تستغرق أحياناً عدة أيام لا بل أسبوعا، يبدأ التفكير بتسوية بسيطة من نتاج عقله».

كان مونـت يبدأ بعبارة بسيطة وغالبا ما تكون حكمة أو شعارا ليرى كيف تكـون ردة فعل نظرائه؛ بعدها يكشف عـن جزء يسير من تفكيره ويلحق ذلك بعبارتين لا أكثر ولا اقل. وإذا ما انتفض رفاقه وقالوا له ما الخطأ بقوله، كان يعيد صياغة أفكاره مهما تطلب الأمر حتى يقبلها كل مشارك في المناقشة. كان مونت يضع أكثر من ثلاثين مسودة سواء كانت مذكـرة أو خطابـاً أو اقتراحاً. والهدف من هذا التكـرار المستمر يشبه هـدف مفاوضات الاتحاد الأوروبي التي لا تنتهي في صياغة السياسيات أو المفاوضـات والمراجعات وذلك لإزالة كل الخلافات أو المصاعب التي تعترضـ قضية من تلك القضايـا؛ وناتج هذا كلـه كان بساطة واضحة لفكرة في غاية التعقيد.

ما أوجـده مونت هو آلة للكيمياء السياسية؛ كل دولة تتبع مصلحتها الوطنيـة ولكـن عندما توضـع المصالـح المختلفة في صنـدوق الأندماج الأوروبـي الأسـود، كان يظهر مشروعا أوروبيًا مـن الطرف الآخر. لقد أظهـرت الحرب العالميـة الثانية لدول البلونكس (لوكسمبورغ وهولندا

وبلجيكا) هشاشتها بشدة أمام الدول الكبرى في أوروبا، ولهذا كان عليهم أن يجدوا طريقة للجم فرنسا وألمانيا؛ ولكن في الوقت ذاته كان الأمل الوحيد أمامهم كدول أوروبية صغيرة لممارسة النفوذ إيجاد نوع من النظام الوحدوي بين الدول. بالنسبة لألمانيا ولحد ما إيطاليا كان الهدف الأول لهما إعادة تأهيلهما من موقعهما كدولتين مارقتين. كما أن العضوية في الاتحاد الأوروبي كانت تمثل للأعضاء حصنا منيعا أمام التهديدات من الشرق وكذلك فرصة للتخلص من القيود التي فرضها الحلفاء على أسواقهم والتي حالت دون الوصول الضروري إلى أسواق ألمانيا للمشاركة في إعادة بنائها. بالنسبة إلى فرنسا كان احتواء ألمانيا هو الهدف الأساس وعزز ذلك الأمل بالنمو الأقتصادي الذي وفره الدخول إلى الأسواق الألمانية والزيادة في الإنتاج، وهو ما وصفه جاك ديلورز بأنه عقد زواج على اساسه تأسس الاتحاد الأوروبي.

كان هذا كله حسابات المصلحة الوطنية لكن بمجرد دخولها في مصفاة مونت عبر المؤسسات الأوروبية كانت الحصيلة حلا لمشكلة الصراع في أوروبا. إن الحرب في أوروبا اليوم ليست ببساطة غير مرغوب فيها بل لا يمكن تصورها أبدًا. فمؤسس الأقتصاد الليبرالي آدم سميث وضع فكرة مثيرة للغاية سماها «اليد الخفية» للسوق ليشرح كيف أن اقتصادا حرا يعمل في ظل مؤسسات وقيود بشرية من شأنه أن يؤدي إلى إقامة مجتمع يحكمه النظام بدلا من حرب الجميع ضد الجميع (قانون الغاب). وكيفما نظرنا فإن عبقرية مونت كانت تكمن بتطوير «يد خفية أوروبية» تسمح بظهور مجتمع أوروبي منتظم يفي

بمصالح الجميع. وهذا بالذات قد يكون أقوى عنصر في رؤية مونت؛ فهو لم يحاول إلغاء الدولة القومية ولا الوطنية بل غيَّر ببساطة طبيعتها من خلال تجميع السيادات كلها في مفهوم الاتحاد الأوروبي.

لقد تمكنت أوروبا من التمدد تقريبا في حياة الأوروبيين بلا معارضة وذلك بانسيابها في بنية الحياة الوطنية مُحولة بذلك المؤسسات الوطنية من الداخل من دون أن تمسها من الخارج؛ إن أوْربة الحياة السياسية قد تمت إلى حد كبير من خلف الستار لكن هذا التستر بالذات أدى إلى نجاح تجربة سياسية فريدة من نوعها.

النظام السياسي الخفي

المكان: مجلس العموم (قصر ويستمنستر)، والزمان: الساعة الحادية عشرة والنصف صباحا. وزيرة التجارة مارغريت بيكت تستعد لمواجهة أسئلة البرلمانيين كما فعل أسلافها على مدى ثلاثمئة سنة. لقد أنهى الجميع الصلاة اليومية والنواب يجلسون على مقاعدهم الخضراء وخلفهم الخط الفاصل الذي وضع في الأساس للحيلولة دون تهجم النواب في الصفوف الخلفية على نظرائهم في المعارضة الجالسين في الجهة المقابلة وذلك عندما يتناوبون على الكلام. يظهر التعب باديا على النواب ويحثهم قلق التأخر عن دوائرهم الأنتخابية إلى الأسراع بالمغادرة، فتتعالى صرخاتهم بالعبارة المعتادة «اسمعوا اسمعوا» ويلوحون بأوراقهم مستنكرين، فتحدث بذلك ضجة أكثر من المعتاد.

بالرغم من أن طقوس «طرح الأسئلة في المجلس» لم تتغير ألبتة عبر تلك القرون إلا أن هذا المظهر الخادع للاستمرارية يخفي حقيقة أن نصف التشريعات الزراعية البريطانية شرعت لتنفيذ قرارات اتخذها وزراؤنا في بروكسل. ورغم أن مجلس العموم يحاسب مارغريت بيكت إلا أن القرار الرئيس لم تصنعه بمفردها، بل كان نتيجة مفاوضات مع نظرائها وزراء الزراعة الأوروبيين ولجان تقنية متنوعة تجتمع ما بين ثلاثمئة وأربعمئة مرة في العام. ولكن بالنسبة لزائر ما لمجلس العموم أو بالنسبة لمزارع بريطاني فإن شيئا لم يتغير لأن السياسات لا تنفذ ولا يصادق عليها على المستوى الأوروبي. فالمزارع سيستمر في التعامل مع وزارة الزراعة الوطنية والجمارك الوطنية وسلطات الضريبة وكذلك مع المراقبين الصحيين ومدراء السلامة والوقاية الذين أصبحوا حراس السياسية الأوروبية.

إن قوى الأوربة الخفية تتجسد في كل نواحي الحياة السياسية البريطانية؛ فلم يعد ثمة وزارة واحدة وطنية لم تقابل نظيرها الأوروبي في منتدى أو ما شابه بمن فيهم وزراء الدفاع والمواصلات وحتى الداخلية. وكما تشير أفضل الإحصاءات فإن ما يقارب ثلث التشريعات البريطانية وثلثي التشريعات الاقتصادية والاجتماعية وضعها وزراء بريطانيون مع نظرائهم الأوروبيين في بروكسل.

وبينما تسربت أوروبا إلى الشريان الأكبر من الحياة السياسية الوطنية إلا أنها حريصة على أن تكون في المقعد الخلفي. فالذين يصادقون وينفذون القرارات هم مجلس العموم البريطاني والموظفون

الحكوميـون والمحاكـم الوطنيـة. ولأن الحكومـات الوطنيـة هم وكلاء القوة الأوروبية فإن اللجنة التنفيذية الأوروبية تبقى صغيرة ومتحفظة. وتوظـف اللجنة الأوروبية التنفيذيـة اثنين وعشرين ألف موظف أي أقل مـن العديد من البلديات الكبـيرة؛ أي بمعدل نصف موظف لكل عشرة الآف مواطـن مقابـل ثلاثمائة موظف لـكل عشرة الآف علـى المستوى التوظيف الحكومي الوطني. ويجادل بعض المشككين بالوحدة الأوروبية بالقول الظالم أن أوروبا هي مشروع فيدرالي متستر. ولكن الحقيقة هي أن كل خطوة خطاها الاتحاد كان طوعية ونوقشت في البرلمانات الوطنية وتمـت فيها المصادقة. لا بل إن عمل الاتحاد الأوروبي يجرى قصدا بلا ضوضـاء لأن بناة الاتحاد يركزون على جعـل السياسات المتخذة فاعلة ولا يسعون إلى قرقعة سياسية تلفت الأنظار.

إن المشـروع الأوروبـي يسعـى لتعزيـز الهويـات الوطنيـة بـدلا من تدميرهـا؛ فبروكسـل على النقيض التام للعاصمـة الإمبرطورية وهي كيفمـا نظـرت اليها عينـة صغيرة مـن أوروبا تمثـل التاريـخ الأوروبي وتجسـده؛ فكل اجتيـاح ومشروع سياسي تقريبا بـدءا من الإمبرطورية الرومانيـة مرورا بنابليون وانتهـاء بالرايخ الثالث مر بهـا واستوعبته. واليـوم سكانهـا وهندستهـا العمرانيـة وعقيدتها تراكـم فوضوي فوق تركـة شعوبها؛ ثلث سكانها من الأجانـب (حيث يعيش الذين بلا جذور مـع النخبة التكنوفراطية الأوروبية ذات الأجـور العالية ومع المهاجرين المنعزلين من الإمبرطوريـات الأوروبية الماضية، من مغاربة وكونغوليين ورواندييـن). إنها عاصمة البلاد لكن بلا هوية وطنية حقيقية (وصراع

مستمـر للوصـول إلى السلطـة بين شعـوب الولونـز والفليمنجز الذين يعيشون على ارضها).

إن عـبء حمـل المهاجر وطنه في عقلـه أينما حل يعنـي أنه لا توجد خطـورة بتحولـه إلى مواطـن أصلي. فقلة مـن البيروقراطيـين الذين ذهبوا إلى بروكسل لم تحاول حتى التأقلم فيها؛ العديد من البريطانيين يلتصقون بجذورهم من خلال إقامتهم حيثما وجدوا إنكلترا الصغيرة، وهـم بالرغم من أنهم يعيشون في واحـدة من العواصم المشهورة بتعدد الأطبـاق الغذائيـة فيها إلا أنهم يملـؤون خزائنهـم وبراداتهم بأطعمة جاهزة ومعلبة من صنع الوطن مثل بودرة الكاستر من نوع ماركة البيرد (الطائـر) ورقائق البطاطا من نوع ووكر، والفصولياء المطبوخة المعلبة مـن نوع هاينز، وكذلك المقانق مـن نوع وولز، والكريم من نوع سالفون. وهـذا الشغـف لا يقـارن بشغـف اليونانيـين الوطنييين الذيـن يلبسون لباسهـم المبهـرج ويخرجـون للرقص في الشوارع في عيدهـم الوطني أو لنقـل الأيرلنديـين الذين يخرجـون مبتهجين من عشـرات الحانات المنتشـرة في المدينة أثناء احتفالهم بعيد القديـس الأسطوري باتريك. إن بروكسـل مدينة لا تعـرف الأنانية فتسمح للهويـات الوطنية الأخرى بالازدهار، وهي بذلك تجسـد دعاية الحزب المحافظ البريطاني الذي ينادي بأن تكون بريطانيا في قلب أوروبا شرط أن لا تديرها الأخيرة.

إن أوروبـا بحفاظها على ظهور متواضع في البلدان الأعضاء وعملها مـن خـلال المؤسسـات الوطنية للـدول الأعضـاء استطاعـت أن تفرد جناحيهـا من دون أن تثير الكثير من العداوة. ومع تحول أوروبا إلى قوة

لا يستهـان بهـا على الساحة العالمية فإنها قـادرة أن تتصرف على تلك الساحـة بالطريقة ذاتها التـي اعتمدتها في الساحـة الأوروبية. وهكذا عندمـا يذهب الجنود الأوروبيون خارج أوروبـا في مهمات دولية فنادرا مـا يرتدون الزي العسكري الأوروبي. وهـم غالبا يخدمون تحت أعلام حلـف شمال الأطلسـي أو الأمم المتحدة؛ وكذلك عندمـا أقامت أوروبا محميـات في البوسنـة وكوسوفو فإن ممثليها يفعلـون ذلك باسم الأمم المتحدة واسم الاتحاد الأوروبي.

والقـوة الأوروبية لها أيضا بـروز متواضع في الميـدان الأقتصادي؛ فاقتصـاد الاتحـاد الأوروبـي هـو بحجـم اقتصـاد الولايـات المتحدة وبمستويـات متقاربـة معـه في مجـال استثمـارات رؤوس الأمـوال في اقتصاديـات دول أخرى ومـع ذلك فإن عضلات أوروبـا الاقتصادية لا تبرز بمقـدار عضلات الولايـات المتحـدة. ولذلك فإن المعـاداة للعولمة هي بالذات معاداة للظاهـرة الأمريكية حتى في داخل الولايات المتحدة نفسهـا ونقيضها الآخـر من العولمة التي لا تجر هـذا القدر من المعاداة هـو الظاهرة الأوروبية. إن تطفل شركـة ماكدونالد ودخولها لكل مكان تثير مرارة الأقتصاديين الوطنيين وكذلك معارضي العولمة في كل أنحاء العالم. إن كل ممثلي الشركات الكبيرة التي تثير الكراهية مثل ستاربك وكاب ونايك جميعها معرَّفـة عالميا بأنها امريكية. ولذلك فإن الأعتداء على مركز التجـارة العالمي قد يكون دليلا على هذا التناقض بمعنى أن الهجـوم على قلب الأقتصاد العالمي وقـع في العاصمة نيويورك لأن هول الأقتصـاد الأمريكي ليس لـه حدود. بالمقارنة فـإن الأقتصاد الأوروبي ينقصه هذا الهول.

أحياناً تتوسع تلك المخاوف وتطال الأمريكيين الذين يشعرون بالخشية إزاء احتمال سيطرة الأقتصاد الأجنبي على الولايات المتحدة؛ لقد شهد عقد الثمانينيات قلقا شديدا داخل الولايات المتحدة بسبب صعود اليابان واحتمال سلبها الولايات المتحدة قيادتها للاقتصاد. ولكن استثمارات أوروبا الآن في الولايات المتحدة تجاوزت بسهولة استثمارات اليابان ومع ذلك لا تظهر بالكاد المخاوف من أوروبا في تحليلات المحللين الأمريكيين الذين يتحدثون عن الضعف الأوروبي.

إن السبب الرئيس وراء التخفي الأوروبي في الخارج يكمن في تاريخ أوروبا الأستعماري الأسود؛ هذا ينم عن رغبة حقيقية بالتخلي عن كل ما تحمله الإمبروطورية من سمات ومظاهر. ولكن ثمة سبب أعمق وراء هذا الأحترام للثقافة المحلية. لم تهدف الرؤية الأوروبية على الإطلاق لإقامة نموذج معين أوحد من التقدم الأنساني، بل سمحت للثقافات المتعددة المتنافسة أن تحيا جنبا إلى جنب. هذا التوجه برز كل البروز في خطاب السياسي الأيرلندي الشمالي، جون هيومز لدى منحه جائزة نوبل للسلام وذلك عندما تحدث في خطاب تسلمه الجائزة عن الاتحاد الأوروبي بأنه أكبر نجاح لعملية سلام في التاريخ. قال هيومز: «لقد برهن الملهمون الأوروبيون أن الأختلاف ليس تهديدا بل أنه شيء طبيعي.... أن الرد على الأختلاف هو باحترامه.... لقد أقام أهل أوروبا مؤسسات تحترم اختلافاتهم- مجلس الوزراء واللجنة التنفيذية الأوروبية والبرلمان الأوروبي- وسمحوا لتلك المؤسسات أن تعمل لما فيه خيرهم ومصالحهم الاقتصادية».

كان لهـذا الأختـلاف والتنوع أثر في جعل الاتحـاد الأوروبي يتمسك أكـثر بمبادئه، وهو مـا لم يكن متوقعا. أحد الأمثلـة التي تعبر عن هذا أفضل تعبير هو حائط برلين. فعندما سقط حائط برلين في عام 1989 لم تكـن توجـد اتفاقية حول السماح لـدول الاتحـاد السوفياتي السابق بالدخـول إلى النادي الأوروبي. ولكن بما أن القادة الأوروبيين فشلوا في الأتفاق على الحدود النهائية للاتحاد الأوروبي فإنهم قرروا أمام هذا الواقـع أن يجعلوا باب الدخول مفتوحـا لأي كان بوسعه أن يفي بمعايير كوبنهاجن للديمقراطية وحكم القانون والتحرر الأقتصادي. ولكن ثمة رغبة تكمن وراء هذا القرار باستبعاد بعض الدول من عملية الأنضمام إلى النـادي الأوروبي. وقد كانـت بعض الدول متحمسة أكثر من اللازم لرفـع معايير الدخول لدرجة يصعب معها علـى تركيا الأنضمام وذلك مـن خلال وضع معايـير متشـددة بخصوص حقوق الإنسـان واحترام الأقليـات. لكن هذا المعايير دفعت تركيـا لإصلاح نفسها وبذلك مهدت الطريق أمام ظهور تركيا الحديثة والديمقراطية القادرة على الأنضمام إلى النادي رغم غياب حماسة العديد من الأعضاء. وينطبق هذا الشيء نفسه على معايير ماستريخت فيما يخص العملة الأوروبية الموحدة التي وضعـت في الأسـاس لجعـل الإيطاليين المسرفين بعيدا عـن الدخول في مشـروع العملة فكانت النتيجة ضبط إيطاليـا إسرافها ودخولها العملة الموحدة.

في كل هذه الأمثلة جاهدت الدول الأعضاء بكل ما لديها للتوصل إلى اتفاق على محطتهـا النهائية واحتمت في سعيها هذا وراء قيم أوروبية؛

المفارقة أن تلك الدول سعت إلى تسليط قيمها على المستوى الأوروبي بهدف الدفاع عن مصالحها على المستوى الوطني. وهذا أدى إلى وجود وضع شاذ بموجبه تملك دول مصالح بدون قيم والإتحاد الأوروبي يملك قيما ولكن بلا مصالح.

كانت نبوءة مونت في بداية المشروع الأوروبي كالآتي: «إننا بدأنا عملية متسمرة من الإصلاح التي من شأنها أن تصوغ عالم الغد بديمومة أكثر من مبادئ الثورة المنتشرة بالطول والعرض خارج الغرب». ولكن بما أن المشروع الأوروبي في أفضل حالاته يعتريه الكسوف وتحجبه التشريعات والحكومات الوطنية فإنه من السهل جدا أن يعمى عنه الناس. بالنسبة للعين المجردة التي تنظر للامور على ما هي عليه وليس أبعد فإن السلطة لم تخرج من يد الحكومات التي لا تزال مصدر الشرعية ولا تزال السياسة سائرة بالطريقة القديمة نفسها. المفارقة هي أن هذه الخفية التي تعتري الاتحاد سمحت بالوقت ذاته للمشروع الأوروبي بالانتشار بعيدا وسريعا مخولة إياه أن يخلق دينامكيته الخاصة للتطور والتقدم. فالدول الأعضاء باجتماعها على يد واحدة وحشد سياداتها لتحقيق الأهداف المشتركة، خلقت قوة جديدة من لا شئ. فالثورة الصامتة التي أطلقوا عنانها سوف تُغيِّر العالم أجمعْ.